الفصل الثالث

يقول الله تعالى :

﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (*) .

(الذاريات : ٢١)

فى هذا الفصل :

● استعرض مبدأ الإنسان إلى نهايته .

● واستعرض أعضاء الإنسان ، وجميل صنع الله فيها .. فى أسلوب أدبى علمى شيق ، تقوم أدلته على القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الصحيحة .

● وأراحنا من خرافات (دارون) ومن لف لفه ، فكفى وشفى ، وأراح واستراح ، ورجح ما اطمأن إليه قلبه بالدليل ، وأنه الصحيح .

● ووفق بين الأحاديث إن تعارضت ، أو اضطرب سندها أو متنها ، وأبان صحيحها من سقيمها .. واستشهد بالصحيح .. ورد غيره .

● وأى الأعضاء خلق أولا فى جسد الإنسان ؟ ومتى تعلقت الروح بالجسد ؟ وسبب الإذكار والإيناث ، فشفى صدور قوم مؤمنين .. وأرضى الحيارى والغاضبين ، ومسح دموع الحزانى فى عدم إنجاب الذكور .

(*) راجع التبيان فى أقسام القرآن .

● وتعرض بإسهاب إلى مراتب التصوير والتخليق فى خلق ونمو الجنين ..

● حتى يصل إلى العظام والأعصاب والأوتار والشرايين والأوردة والأغشية واللحم فيثبت أن العطام كالأساس للبناء

● وتعقب قول الفلاسفة والعلماء والحكماء والأطباء وغيرهم - ورجح ما ذكره الله ورسوله .. ومن ود مزيد علم وبيان فى هذا الجانب فعليه بكتابه السالف .. ففيه شفاء لما فى الصدور والعقول .

وإنما ذكرنا شواهد فى هذا الكتاب - كغيرها فى فصول أخرى - لبيان عظمة الإمام ابن القيم ، ونبوغه ، وفضله ، وإشارات هادية إلى علمه ...

* *

قال الله تعالى :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

نذكر فصلاً مختصراً فى حال الإنسان من مبدئه إلى نهايته لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وبارئه ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1] .

لما اقتضى كمال الرب تعالى - جل جلاله - وقدرته التامة ، وعلمه المحيط ، ومشيئته النافذة ، وحكمته البالغة ، تنويع خلقه من المواد المتباينة ، وأنشأهم من الصور المختلفة ، والتباين العظيم بينهم فى المواد والصور ، والصفات ، والهيئات والأشكال والطبائع والقوى .

اقتضت حكمته سبحانه أن أخذ من الأرض قبضة من التراب ، ثم ألقى عليها الماء ، فصارت مثل الحمأ المسنون ، ثم أرسل عليها الريح فجففها ، حتى صارت صلصالاً كالفخار ، ثم قدر لها الأعضاء والمنافذ والأوصال والرطوبات ، وصورها فأبدع فى تصويرها ، وأظهرها فى أحسن الأشكال ، وفصلها أحسن تفصيل ، مع اتصال أجزائها ، وهيأ كل جزء منها لما يراد منه ، وقدره لما خلق له عن أبلغ الوجوه ، ففصلها فى توصيلها ، وأبدع فى تصويرها وتشكيلها ، والملائكة تراها ولا تعرف ما يراد منها ، وإبليس يطيف بها ، ويقول : لأمر ما خلقت ، فلما تكامل تصويرها ، وتشكيلها ، وتقدير أعضائها وأوصالها وصارت جسدًا مصورًا مشكلاً كأنه ينطق ، إلا أنه لا روح فيه ولا حياة . . أرسل إليه روحه ، فنفخ فيه نفخة ، وانقلب ذلك الطين لحمًا ودمًا وعظامًا وعروقًا وسمعًا وبصرًا وشمًا ولمسًا وحركة وكلامًا ، فأول

---

(١) الذاريات : ٢١

شيء بدأ به أن قال : « الحمد لله رب العالمين » ، فقال له خالقه وبارئه ومصوره : « يرحمك الله يا آدم » فاستوى جالسًا أجمل شيء ، وأحسنه منظرًا ، وأتمه خلقًا ، وأبدعه صورة .

فقال الرب تعالى لجميع ملائكته : ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ فبادروا بالسجود ، تعظيمًا وطاعة لأمر الواحد المعبود ، ثم قال لهم : لنا فى هذه القبضة من التراب شرع أبدع مما ترون ، وجمال باطن أحسن مما تبصرون ، فلنزينن باطنه أحسنه من زينة ظاهره ، ولنجعلنه من أعظم آياتنا ، نعلمه أسماء كل شيء ، مما لا تحسنه الملائكة ، فكان التعليم زينة الباطن وجماله ، وذلك التصوير زينة الظاهر فى أكمل شيء ، وأجمله صورة ، ومعنى كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى قبضة من تراب .

ثم اشتق منه صورة هى مثله فى الحسن والجمال (حواء) ، ليسكن إليها وتقر نفسه ، وليخرج من بينهما من لا يحصى عدده من الرجال والنساء سواه .

* *

● **تسلسل النسل :**

ثم لما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما فى الأرض ويكثره . وضع فيهما حرارة الشهوة ونار الشوق والطلب ، وألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه ، فاجتمعا على أمر قد قدر ، فاسمع الآن عجائب ما هناك :

لما شاء الرب تعالى أن يخرج نسخة هذا الإنسان منه أودع جسده حرارة ، وسلط عليه هيجانها ، فصارت شهوة غالبة ، فإذا هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبات من جميع أجزاء الجسد ، وابتدأت نازلة من خلف الدماغ ، من عروق خلف الأذنين إلى قفا الظهر ، ثم تخرج إلى الكليتين ، ثم تجتمع فى أوعية المنى ، بعد أن طبختها نار الشهوة ، وعقدتها حتى صار لها قوام وغلظ ، وقصرتها حتى ابيضت ، وقدر لها مجارى وطرق تنفذ فيها ، ثم اقتضت حكمته سبحانه أن قدر لخروجها أقوى الأسباب المستفرغة لها من خارج ومن داخل ، فقيض لها صورة حسنها فى عين الناظر ، وشوقه إليها ،

وساق أحدهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة والمحبة ، فحن كل منهما إلى امتزاجه بصاحبه ، واختلاطه به ، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً . .

ثم يبين منشأ (المنى) ، وتخلقه وتركبه ، والخلاف فى ذلك ، ومن أين استلاله وتباينه مستشهدًا بالقرآن والسنة وقول الأطباء ، والفلاسفة ويناقشهم ويرد عليهم ، ويختار الأصوب فى رأيه . فى نفس طويل لسنا بحاجة إليه فى هذه العجالة . . حتى يكتب الملك نوعه ، وشقاءه أو سعادته ، ورزقه وأجله فى بطن أمه .

إلى أن يقول : وأما قولكم : لو كان المنى مستلاً من جميع الأعضاء لكان الولد يتشكل بشكلهما معًا ، فقد أجاب النبى ﷺ ، عمن سأله عن ذلك بما شفى وكفى . .

ففى صحيح البخارى ، من حديث أنس رضى الله عنه قال :

بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وهو فى أرضه يخترف فأتاه ، وقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى :

ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أى شىء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أخبرنى بهن آنفًا جبريل » .

فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة .

أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبق ماؤه كان الشبه له .

فقال أشهد أنك رسول الله .

فهذا جواب جبريل أمين رب العالمين ، لا جبريل الطبيب .

وفى صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبى ﷺ : « إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنث بإذن الله » ، وقد

يتفق المآآن فى الإنزال والقدر : وذلك من أندر الأشياء ، فيخلق للولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأة (هو الخنثى) ، فإذا شاء الله أن يغلب سلالة ماء الرجل على ماء المرأة أو سلالتها أمر ملك الأرحام بتصويره كذلك . فإن ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق عادته ، ولو خرقها لم يخل بحكمة أحكم الحاكمين .

ثم يذكر المشابهة فى الأعضاء ، والطباع والشعور والإحساس ومنشؤها . . ويثبت أن للمرأة منيًّا ، مثل الرجل . . إلى أن يقول :

ذكر جالينوس فى التشنيع على أرسطاليس حين قال (لا ماء للمرأة) الشيء الكثير وأفاض فى الرد على أرسطاليس ، والأطباء من بعده فى اعتقادهم أنه لا ماء للمرأة فى نفس طويل ، مرجحًا أن لها منيًّا . . يختزى منه ما يلى :

فإن قيل : فهذا تصريح منكم بأن المرأة لها منى ، وأن منها أحد الجزئين اللذين يخلق الله منهما الولد . وقد ظن طائفة من الأطباء أن المرأة لا منى لها .

قيل : هذا هو السؤال الذى أوردته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأم سلمة رضى الله عنها ، على النبى ﷺ ، وأجابهما عنه بإثبات منى المرأة :

ففى الصحيح : أن أم سليم رضى الله عنها قالت : يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق ، هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ قال : « نعم ، إذا رأت الماء » ، فقالت أم سلمة : أو تحتلم المرأة ؟ فقال : « تربت يداك ، فبم يشبهها ولدها ؟ »

وفيهما عن عائشة رضى الله عنها ، أن أم سليم رضى الله عنها ، سألت رسول الله ﷺ عن المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل ، هل عليها من غسل ؟ قال : « نعم ، إذا رأت الماء » ، قالت : فقلت له : أفترى المرأة ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وهل يكون الشبه إلا من ذلك ؟ إذا علا ماؤهـ ماء الرجل أشبه الولد أخواله . وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه » هذا لفظ مسلم .

ثم يضرب صفحًا عن خيالات وشطحات بعضهم بعد أن يستعرضها

ويفندها فى كل ما هرفوا به ثم يذكر الحديث فيأتى كفلق الصبح . . وعن مراحل الخلق والتخليق يذكر ما جاء فى الصحيحين عن النبى المعصوم ﷺ : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع : يكتب رزقه وأجله ، وعمله وشقى أو سعيد » .

❊ ❊

وذكر بعض الأطباء كلامًا فى سبب تفاوت زمن الولادة . . ولم يعجب هذا ابن القيم . . فيذكره ويرد عليه : يقول بعض الأطباء : إذا تم تخليق الجنين فى مدة معينة . . فإنها إذا زاد عليها مثلها تحرك الجنين ، فإذا انضاف إلى المجموع مثلاه : انفصل الجنين ، قال : فإذا تم خلقه فى ثلاثين يومًا .

فإذا صار له ستون يومًا تحرك ، فإذا انضاف إلى الستين مثلاها ، صارت مائة وثمانين يومًا وهى ستة أشهر ، وهى مدة ينفصل لها الحمل ، وإذا تم خلقه فى خمسة وثلاثين يومًا تحرك لسبعين ، وانفصل لسبعة أشهر ، وإذا تم خلقه لأربعين تحرك لثمانين ، وانفصل لثمانية أشهر ، وإذا تم لخمسة وأربعين تحرك لتسعين ، وانفصل لتسعة أشهر . وعلى هذا الحساب أبدًا .

وهذا الذى ذكره هذا القائل يقتضى حركة الجنين قبل الأربعين ، وهذا خطأ قطعًا :

فإن الروح إنما تتعلق به بعد الأربعين الثالثة ، وحينئذ يتحرك ، فلا تثبت له حركة قبل مائة وعشرين يومًا ، وما يقدر من حركة قبل ذلك فليست حركة ذاتية اختيارية ، بل لعلها حركة عارضه بسبب الأغشية والرطوبات .

وما ذكره من الحساب لا يقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة ، فربما زاد على ذلك أو نقص منه .

ولكن الذى نقطع به أن الروح لا تتعلق به إلا بعد الأربعين الثالثة ، وما يقدر من حركة قبل ذلك إن صحت لم تكن بسبب الروح . والله أعلم .

❊ ❊

● **مدة الحمل** : يزكى ما ذكره القرآن الكريم ، ويضرب صفحًا عن ترهات الفلاسفة فى أن امرأة ولدت ولدًا لمدة حمل هى ١٤٨ ليلة ، ويضرب صفحًا عن شطحات بعضهم فيما بلغه أن امرأة ولدت من نبتت له أسنان ، يقول :

وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر ، قال تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (٢)

* *

● **سبب الإذكار والإيناث** :

ثم يتعرض لقضية تعرض للكثيرين فتؤرق مضاجعهم ، وتنغص حياتهم ، لعدم رضائهم بعطاء الله تعالى ، حتى يريحوا ويستريحوا ، فيقول :

فإن قيل : فما سبب الإذكار والإيناث ؟ قيل : الذى نختاره أن سببه مشيئة الرب الفاعل باختياره ، وليس بسبب طبيعى ، وكان ما ذكر أصحاب الطبائع من الأسباب فمنتقض ، مثل : حرارة الرجل ورطوبته ، قالوا : وفساد المزاج أيضًا يوجب إيلاد الإناث ، واستقامته توجب الإذكار .

وهذا تخليط وهذيان : فليس للإذكار والإيناث إلا قول الله لملك الأرحام ، وقد استأذن : (يا رب ذكر ، يا رب أنثى ؟ يا رب شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟) ، والإذكار والإيناث ، قرين السعادة ، والشقاوة ، والرزق ، والأجل .

فإن قيل : فتلك أيضًا بأسباب ؟ قلنا : نعم ، ولكن بأسباب بعد لولادة ، ولا سبب للإذكار والإيناث قبل الولادة .

فإن قيل : فما تصنعون بحديث ثوبان الذى رواه مسلم فى صحيحه ، أن

---

(١) الأحقاف : ١٥ (٢) البقرة : ٢٣٣

يهوديًا سأل النبى ﷺ عن الولد ، فقال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنث بإذن الله » فقال اليهودى : صدقت ، وإنك لنبى .

قيل : هذا الحديث تفرد به مسلم فى صحيحه ، وقد تكلم فيه بعضهم ، وقال : الظاهر أن الحديث وهم فيه بعض الرواة ، وإنما كان السؤال عن الشبه ، وهو الذى سأل عنه عبد الله بن سلام فى الحديث المتفق على صحته ؛ فأجابه بسبق الماء ، فإن الشبه يكون للسابق ؛ فلعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه أنثى ، وشبهه بالوالد بكونه ذكرًا ، لا سيما والشبه التام إنما هو بذلك .

* **وقالت طائفة** : الحديث صحيح لا مطعن فى سنده ، ولا منافاة بينه وبين حديث عبد الله بن سلام . **وليست الواقعة واحدة ، بل هما قضيتان** ، ورواية كل منهما غير رواية الأخرى .

فى حديث ثوبان قضية ضبطت وحفظت ، قال ثوبان : كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ ، فجاء حبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد . فدفعته دفعة كاد يصرع منها . فقال لى : لم تدفعنى ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله .

فقال رسول الله ﷺ : « إن اسمى محمدًا الذى سمانى به أهلى » ، فقال اليهودى : جئت أسألك . .

فقال رسول الله ﷺ : « أينفعك شىء إن حدثتك ؟ » ، قال : أسمع بأذنى فنكت رسول الله ﷺ بعود معه ، فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم فى الظلمة دون الجسر » .

قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : « فقراء المهاجرين » .

قال اليهودى : فما تحفتهم حتى يدخلوا الجنة ؟ قال : « زيادة كبد الحوت » .

قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها » .

قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلاً » . قال : صدقت .

قال : وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد إلا نبىّ أو رجل أو رجلان . قال : « أينفعك إن حدثتك » ؟ . قال : أسمع بأذنى .

قال : جئت أسألك عن الولد . قال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر . فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنث بإذن الله » . قال اليهودى : لقد صدقت ، وإنك لنبى ، ثم انصرف ، فذهب .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد سألنى هذا الذى سألنى عنه ، وما لى علم به ، حتى أتانى به الله » .

وأما حديث عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، ففى صحيح البخارى ، عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأتاه ، فقال : « إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أى شىء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «خبرنى آنفاً جبريل » ، فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبقت كان الشبه لها » .

قال : أشهد أنك رسول الله ، وذكر الحديث . . .

* فتضمن الحديثان أمرين ترتب عليهما الأثران معًا ، وأيهما انفرد ترتب عليه أثره :

فإذا سبق ماء الرجل وعلا أذكر وكان الشبه له . وإن سبق ماء المرأة وعلا آنث ، وكان الشبه لها . وإن سبق ماء المرأة وعلا ماء الرجل أذكر . وكان الشبه لها . ومع هذا كله فهذا جزء سبب ليس بموجب .

والسبب الموجب مشيئة الله : فقد يسبب بضد السبب ، وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ، ولا يكون فى ذلك مخالفة لحكمته ، كما لا يكون تعجيزًا لقدرته، وقد أشار فى الحديث إلى هذا بقوله : « أذكر وأنث بإذن الله » ، وقد قال تعالى : ﴿ لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه أن ذلك عائد إلى مشيئته وأنه قد يهب الذكور فقط ، والإناث فقط ، وقد يجمع للوالدين بين النوعين معًا ، وقد يخليهما عنهما معًا ، وأن ذلك كما هو راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته . وقد وهب الله آدم الذكور والإناث ، وإسرائيل الذكور دون الإناث ، ومحمد ﷺ الإناث دون الذكور ، سوى ولده إبراهيم (٢) .

وقال سليمان عليه السلام : « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل امرأة منهن بغلام يقاتل فى سبيل الله ، فطاف عليهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق ولد .

قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون » .

---

(١) الشورى : ٤٩ ، ٥٠

(٢) قد ولد للنبى ﷺ من خديجة من الذكور القاسم - وهو أول أولاده ، وبه كان يكنى - وعبد الله والطيب والطاهر ، وقيل : أن الطيب والطاهر لقبًا عبد الله ، وولد له من جاريته مارية إبراهيم ، وكلهم ماتوا أطفالاً .

فدل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام ، وإن كان له مدخل فى السببية ، وأن السبب التام مشيئة الله وحده .

فهو رب الأسباب المتصرف فيها كيف شاء بإعطائها السببية إذا شاء ، ومنعها إياها إذا شاء ، وترتيب ضد مقتضاها عليها إذا شاء . والأسباب هى مجارى الشرع والقدر ، فعليها يجرى أمر الله الكونى والدينى .

فإن قيل : فقد ظهر أن الولد مخلوق من الماءين جميعًا ، فهل يخلق منهما على حد سواء ، أم يكون الولد من ماء الأب ، وبعضه من ماء الأم ؟ قيل : قد بين النبى ﷺ هذه المسألة بأوضح البيان ، فقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا حسين بن الحسين حدثنا أبو كريب عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : مرّ يهودى برسول الله ﷺ ، وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبى، فقال : لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى ، فجاء حتى جلس ، ثم قال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ ، فقال : « من كلٍّ يخلق : من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة ، منها العظم والعصب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة ، منها اللحم والدم » ، فقام اليهودى فقال : هكذا يقول من قبلك .

* *

ثم يفيض ابن القيم بعد ذلك فى المدة التى تعلق الروح فيها بالجسد ، ثم يختار أن ذلك بعد الأربعين الثالثة - كما أخبر حديث الصادق الأمين ﷺ إلى أن يصل بعد كلام طويل إلى مجمل مراتب التصوير والتخليق الأربعة ، فيقول :

فههنا أربع مراتب :

أحدها : تصوير وتخليق علمى ، لم يخرج إلى الخارج .

الثانية : مبدأ تصوير خفى يعجز الحس عن إدراكه .

الثالثة : تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد .

الرابعة : تمام التصوير الذى ليس بعد إلا نفخ الروح .

* فالمرتبة الأولى : علمية ، والثلاث الآخر خارجية عينية . وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير ؛ فالرب تعالى قدر مقادير الخلائق تقديراً عامًا قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهنا كتب السعادة والشقاوة والأعمال والأرزاق والآجال .

(الثانى) تقدير بعد هذا وهو أخص منه ، وهو التقدير الواقع عند القبضتين، حين قبض تبارك وتعالى أهل السعادة بيمينه ، وقال : « هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون » وقبض أهل الشقاوة باليد الأخرى ، وقال : « هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » .

(الثالث) تقدير بعد هذا ، وهو أخص منه عندما يمنى به ، كما فى حديث حذيفة بن أسيد المذكور .

(الرابع) تقدير آخر بعد هذا وهو عندما يتم خلقه وينفخ فيه الروح ، كما صرح به الحديث الذى قبله .

وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى ، وإحاطته بالكليات والجزئيات ، وكذلك التصوير الثانى مطابق للتصوير العلمى ، و الثالث مطابق للثانى ، و الرابع مطابق للثالث .

وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى ، ومطابقة المقدور للمعلوم ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

ونظير هذا التقدير الكتابة العامة قبل المخلوقات ، ثم كتابة ما يكون من العام إلى العام فى ليلة القدر ، وكل مرتبة من هذه المراتب تفصيل لما قبلها وتنوع . وكلام رسول الله ﷺ يصدق بعضه بعضًا ، ويفسر بعضه بعضًا ،

ويطابق الواقع فى الوجود ، ولا يخالفه ، وإنما يخبر بما لايستقل الحس والعقل بإدراكه ، لا بما يخالف الحس والعقل ، وإنما يعرفه الناس ويستقلون بإدراكه على أمر عينى يتعلق به الإيمان ، أو على حكم شرعى يتعلق به التكليف ، والله أعلم .

* *

ثم يذكر - رحمه الله تعالى - أى عضو يتخلق أولاً ، وقبل غيره . . فهل هو القلب ؟ أو الدماغ ؟ أو العينان ؟ أو الكبد ؟ أو السرة . . على رأى الفلاسفة والأطباء . . ويذكر أقوالهم ويرد عليهم ، بعد أن يناقش بما فيه علم غزير ، وعقل مستنير ، ونفى لوهم كبير .

إلى أن يصل إلى الأعضاء التى ليست برئيسة ولا مرءوسة ، ليتم بها قوام الأمر وتدبيرها من أجل جلب المنافع ودفع المضار ، كالعظام ، والغضاريف ، وسائر الأعضاء المتشابهة الأجزاء ، مثل الرباطات ، والأعصاب ، والأوتار ، والشرايين ، والأوردة ، والأغشية واللحم ، والعظام كالأساس والاسطوانات؛ لبناء هيكل البدن .

فإن قيل : هل فى العظام قوة الإحساس وحياته أم لا ؟ قيل : هذا موضع اختلف فيه أرباب الشريعة . فيما بينهم ، وأرباب الطبيعة فيما بينهم ، فقالت طائفة : لا حياة فى العظام وإن كان فيها قوة النمو والاغتذاء :

* قالوا : إن الحياة إنما هى الروح الحيوانى ، ولا حظ للعظام فيه .

* قالوا : ولأن مركب الحياة إنما هو الدم المنبث فى العروق والأعصاب واللحم . ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر نصيب من ذلك ، ولهذا لم يألم الإنسان بأخذه .

* قالوا : فحياة العظام والشعر حياة نمو واغتذاء ، وحياة أعضاء البدن حياة نمو وإحساس .

* قالوا : ولهذا قلنا إن العظام لا تنجس بالموت لأنها لم يكن فيها حياة تزول بالموت .

* قالوا : وزوال النمو لا يوجب نجاسة ما فارقه ، بدليل يبس الزرع والشجر .

* وقال آخرون : الدليل على أن العظام تحلها الحياة قوله تعالى :

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (١) ، والحس يدل على ذلك أيضًا ؛ فإن العظم يألم ويضرب ويسكن ، وذلك نفس إحساسه .

* قالوا : ولا يمكن إنكار كون العظام فيها قوة حساسة تحس بالبارد والحار .

* قال الآخرون : الإحساس والألم ليس للعظم فى نفسه ، وإنما هو لما جاوره من اللحم .

قال المنازعون لهم : هذا مكابرة ظاهرة ، فإن العظم نفسه يألم ، ولا سيما إذا تصدع ، ثم إن الأسنان ، والأضراس تحس بالألم والحار والبارد بأنفسها ، لا بمجاورها من اللحم .

ولهذا توسطت طائفة ثالثة ، وقالت : عظام الأسنان خاصة لها الإحساس ، بخلاف سائر العظام ، وهؤلاء قد سلموا المسألة من مكان قريب ، فإن الذى دل على إحساس الأسنان وحياتها ، هو الدال على حياة سائر العظام ، والشبهة التى ذكروها لو صحت لمنعت من إحساس الأسنان .

وأما حديث الطهارة والنجاسة فذاك لأمر آخر وراء الحياة .

من نجسها بالموت سوى بينها وبين اللحم ، ومن لم ينجسها - وهو الراجح

---

(١) يس : ٧٨ ، ٧٩

فى الدليل - فذاك لعدم علة التنجيس فيها ، وإن الموت ليس بعلة النجاسة ، وإنما هو دليل العلة وسببها . والعلة هى احتقان الفضلات فى اللحم ، والعظم برىء من ذلك . والدليل على هدا أن الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النامى الذى لا نفس له سائلة ، لعدم احتقان الفضلات فيه ، فلأن لا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى . فإن الرطوبات التى فى الذباب والعقرب والخنفساء ، أكثر من الرطوبات التى فى العظم .

* *

● **عدد العظام فى البدن :**

والذى أحصاه المشرحون من العظام فى البدن مائتان وثمانية وأربعون عظمًا ، سوى الصغار : السمسميات التى أحكم بها مفاصل الأصابع والتى فى الحنجرة .

وقد أخبر النبى ﷺ أن الإنسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلاً ، فإن كانت المفاصل هى العظام فقد اعترف (جالينوس) وغيره بأن فى البدن عظامًا صغارًا لم تدخل تحت ضبطهم وإحصائهم ، وإن كان المراد بالمفاصل المواضع التى تنفصل بها الأعضاء بعضها عن بعض - كما قال (الجوهرى وغيره) المفصل واحد مفاصل الأعضاء - فتلك أعم من العظام فتأمله .

وإن السلاميات المذكورة فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى ذر : « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة » الحديث [1] فالسلامى : العظم ، وجمعه سلاميات .

فهنا ثلاثة أمور : أعضاء ، وعظام ، ومفاصل .

---

(١) تمامه : « وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » ، قال فى المرقاة : ولعل وجه تخصيصهما بالإجزاء : أنه وقت غفلة أكثر الناس عن الطاعة ، والقيام بمقام العبودية ، ولذا فسر الشفع والوتر بهذه الصورة ، والوتر فى جوف الليل لكونهما وقت الاستراحة .

وجعل الله سبحانه العظام أصلب شيء فى البدن ، لتكون أسًا وعمدة فى البدن ، إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام ، حتى القلب ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وهى حاملة للأعضاء ، والحامل أقوى من المحمول ، ولتكون وقاية وَجُنَّة أيضًا ، كالقحف ، فإنه وقاية الدماغ ، وعظام الصدر وقاية له .

وجعلت العظام كثيرة لفوائد ، ومنافع عديدة : منها الحركة ، فإن الإنسان قد يحتاج إلى حركة بعض أجزائه دون بعض ، وقد يحتاج إلى حركة جزء من عضو .

* منها : أنه لو كان على عظم واحد لكان إذا أراد أن يتحرك تحرك بجملته.

* ومنها : أنه كان يتعذر عليه الصنائع والحمل والربط .

* ومنها : أنه إذا أصابه آفة عمت جميع البدن ، فجعلت العظام كثيرة ليكون متى نال بعضها آفة لم تسر إلى غيره ، وقام غيره من العظام مقامه فى تحصيل تلك المنفعة .

* ومنها : تعدد المنافع التى حصلت بسبب تعدد العظام ، ولولا كثرتها ، وتعددها لفاتت تلك المنافع .

* ومنها : أن من العظام ما يحتاج البدن إلى كبيره ، ومنها ما يحتاج إلى صغيره ، ومنها ما يحتاج إلى مستطيلة ، ومنها ما يحتاج إلى مجوفه ، ومنها ما يحتاج إلى محنيه ، ومنها ما يحتاج إلى مستقيمه ، ولا يحصل ذلك إلا بتعدد العظام .

* ومنها : بديع الصنع ، وحسن التأليف والتركيب ، وغير ذلك من الفوائد . .

* *

● مراحل تغذية الإنسان :

وقد سلم الله غذاء الإنسان إلى يده ، فتأخذه فتسلمه إلى شفتيه فتسلمه

الشفتان إلى الأنياب والثنايا ، فتفصله ، ثم تسلمه إلى الأضراس ، فتسلمه ، وتطحنه ، ثم تسلمه إلى اللسان والفم ، فيعجنه ثم يسلمه إلى احلقوم والمرىء ، فيسلمه ، ويوصله إلى المعدة ، فتصبخه وتنضجه ، وتصلحه كما ينبغى ، ثم تسلمه إلى الكبد ، فيتسلمها منها ، ثم يرسل منه إلى كل عضو راتبه ومعلومه، ثم تصب قربة الصفراء فى المرارة السوداء فى الطحال ، والثفل يخرجه عنها كما تقدم بيانه .

* *

وبعد أن يصول ويجول ابن القيم فى هذا الميدان . . يصل إلى ما بدأ منه ، وفيه العظة والعبرة لمن كان له قلب أو ألقى لسمع وهو شهيد ، فيقول - عفا الله عنه - مذكرًا بما بدأ به فى قوله تعالى : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

* *

وبعد . .

فاستقبل الآن النظر فى نفسك ، وانظر إلى المبدأ الأول ، وهو النطفة التى هى قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت ، كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والإناث ، ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ؟ ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها فى الرحم فى قرار مكين . لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ؟ ثم صرف تلك النطفة طورًا بعد طور ، وطبقًا بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض .

وكيف جعل سبحانه النطفة - وهى بيضاء مشرقة - علقة حمراء ، ثم جعلها مضغة ، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام ، والأعصاب ، والعروق ، والأوتار ، واللحم ، فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث ؟

ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر فى تلك النطفة شيئًا

بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آلته ، ولا قلمه ، **فهل رأيت مصورًا لا تحس آلته ولا تلاقيها ؟** .

* *

* ثم تأمل هذه القبة العظيمة التى قد ركبت على المنكبين ، وما أودع فيها من العجائب ، وما ركب فيها من الخزائن ، وما أودع فى تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات ، والأعصاب ، والطرق ، والمجارى ، والدماغ ، والمنافذ ، والقوى الباطنة . من الذكر ، والفكر ، والتخيل ، وقوة الحفظ ، ففيه القوة المفكرة ، والذاكرة ، والمخيلة ، والحافظة . وهذه القوى مودعة فى خزائنها ، مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد ؛

* فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه ، وبصره وأنفه وفمه ؟ وكيف ركب كرته فى بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظمًا ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة ؟ !

* وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة ؟!

* ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ، بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض ، ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الحلقة المخصوصة .

* ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى ، والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الإلهية بأن صين بأنواع من الصيانات : وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق . وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية ، وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد . ثم فوق الجلد الشعر . فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات ، كما خلق فوق الأرض سبع سموات طباقًا ، والمقصود من تخليقها الاحتياط فى صون الدماغ عن الآفات ، والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن .

وهو سبحانه قسمه فى طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل ، والبطن الأوسط محل التأمل والتفكر ، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه .

ولكل واحدة من هذه الأمور الثلاثة أمر مهم للإنسان ، لا بد له منه ، وأنه محتاج إلى التفهم والتفهيم ، ولو لم يكن حافظًا لمعانى التصورات وصورها بعد غيبتها لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجيء الأخرى ، فلم يحصل المقصود من الفهم والإفهام ، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات ، حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التى فيها القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الإنسان إلا بها . .

* وقد قال قوم : إن محل هذه الصور النفس . وقال قوم : محلها القلب ، وقال قوم : محلها العقل ، ولكل فريق منهم حجج وأدلة ، وكل منهم أدرك شيئًا وغاب عنه شيء ؛ إذ الإدراك المذكور مفتقر إلى مجموع ذلك ، لا يتم إلا به .

والتحقيق : أن منشأ ذلك ومبدأه من القلب ، ونهايته ومستقره فى الرأس . وهى المسألة التى اختلف فيها الفقهاء ، هل العقل فى القلب أو فى الدماغ ؟ على قولين : حكيًا روايتين عن الإمام أحمد .

والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهى إلى الدماغ . قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (١) فجعل العقل فى القلب ، كما جعل السمع بالأذن ، والبصر بالعين ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٢) ، قال غير واحد من السلف : لمن كان له عقل .

واحتج آخرون : بأن الرجل يضرب فى رأسه فيزول عقله . ولولا أن العقل فى الرأس لما زال . فإن السمع والبصر لا يزولان بضرب اليد أو الرجل ، ولا غيرهما من الأعضاء لعدم تعلقهما بهما .

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) سورة ق : ٣٧

وأجاب أرباب القلب عن هذا بأنه لا يمتنع زواله بفساد الدماغ وإن كان فى القلب ، لما بين القلب والرأس من الارتباط ، وهذا كما لا يمتنع نبات شعر اللحية بقطع الأنثيين ، وفساد القوة بفساد العضو قد يكون ، لأنه محلها وارتباطه بها . والله أعلم .

* وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته ، كيف ترتسم صورة السموات والأرض والبحار ، والشمس والقمر والأقاليم ، والممالك والأُمم فى هذا المحل الصغير ؟ والإنسان يحفظ كتبًا كثيرة جدًا ، وعلومًا شتى متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترتسم كلها فى هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة فى هذا المحل .

وأنت لو ذهبت تنقش صورًا وأشكالاً كثيرة فى محل صغير لاختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضًا . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة ، والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة .

* *

* ومن أعجب الأشياء أن هذه القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى ، مثاله :

أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلمس الشيء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذى رأيته ، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته .

ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراءه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو لم يرها قط ، اعتمادًا منه على الصوت ، بل لو كانت خرساء أيضًا وهو أطرش جار له الوطء .

* وقد جعل الله سبحانه بين السمع والبصر ، والفؤاد علاقة وارتباطًا ونفوذًا يقوم به بعضها مقام بعض .

ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرًا فى كتابه كقوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (٣) ، وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية ، لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى ، وتفيد فائدتها فى الجملة ، لا فى كل شىء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكر وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع فى الدنيا والآخرة ؛ فركب القوة المفكرة من شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيبًا خاصًا ، فيتولد من بين هذين الشيئين شىء ثالث جديد لم يكن للعقل شعور به ، كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث .

ومن هنا حصل استخراج الصنائع ، والحرف ، والعلوم ، وبناء المدن والمساكن ، وأمور الزراعة والفلاحة ، وغير ذلك ، فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك ، واستحسنته سلمته إلى القوة الإرادية العلمية ، فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان الأعيان ، فكان أمرًا ذهنيًا ، ثم صار وجوديًا خارجيًا .

ولولا الفكرة لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من أعظم النعم ، وتمام العناية الإلهية ، ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر . ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرًا وتقديرًا فيفكر فى استخراج المادة أولاً ، ثم يقدرها ويفصلها ثانيًا كما - يصنع الخياط - يحصل الثوب ثم

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) الأحقاف : ٢٦ (٣) الأعراف : ١٧٩

يقدره ويفصله ثانيًا ، قال تعالى عن الوحيد : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (١) .

فكرر سبحانه التقدير دون التفكير ، وذمه عليه دونه ، وهذا منزل على مقتضى حال سواه : فإنه بالفكر طالب لاستخراج المجهول ، وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديرًا كليًا وتقديرًا جزئيًا ، **فالتقدير الكلى** : أن الساحر هو الذى يفرق بين المرء وزوجه . **والتقدير الجزئى**: أن الذى يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فههنا تقدير بعد تقدير . فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فإن الفكر طالب لمعرفة الشىء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق . فتأمله .

* *

ثم يتأمل العين وما لها ، والدماغ ، والأنف ، والقلب أمير البدن ، والصدر وما وعى ، وجنود القلب ، وما يتعلق به ؛ ولأنه سرّ الإنسان ، وله جنود ، وهو مخلوق للسفر إلى الله سبحانه والدار الآخرة . . يقول عنه :

● **للقلب معنيان** :

. . . ويطلق القلب على معنيين : **أحدهما** : أمر حسى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف ، وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح . **والثانى** : أمر معنوى . وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية .

* **وللقلب جندان** : جند يرى بالأبصار . وجند يرى بالبصائر . **فأما جنده**

---

(١) المدثر : ١١ - ١٩

المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافًا . فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت ، وإذا أمر الرجل بالسعى سعت ، وكذا جميع الأعضاء ذللت له تذليلاً .

* ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل فى هذ العالم ليتزود منه ، افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله ، فأعين بالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذء والمنافع ، ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر إلى جندين :

باطن : وهو **الإرادة ، والشهوة ، والقوى ، وظاهر** وهو الأعضاء : فخلق فى القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه . وخلقت له الأعضاء التى هى آلة الإرادة .

واحتاج فى دفع المضار إلى جندين : **باطن** . وهو الغضب الذى يدفع المهلكات ، وينتقم به من الأعداء . **وظاهر** ، وهو : الأعضاء التى ينفذ بها غضبه ، كالأسلحة للقتال ، ولا يتم ذلك إلا بمعرفته ما يجب وما يدفع ، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره .

* ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة ، وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفًا ومحلاً ينفذها فيه :

فجعل لقوة الحسد فيه مصرفًا ، وهو المنافسة فى فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة إليه ، ولقوة الكبر مصرفًا وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم ، وقد قال النبى ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن » ، وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه .

وجعل لقوة **الحرص مصرفًا** ، وهو الحرص على ما ينفع ، كما قال النبى ﷺ : « احرص على ما ينفعك » ، ولقوة الشهوة مصرفًا ، وهو التروح

بأربع ، والتسرى بما شاء . ولقوة حب المال مصرفًا ، وهو إنفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبة المال على هذا الوجه لا تذم .

ولمحبة الجاه مصرفًا ، وهو : استعماله فى تنفيذ أوامره ، وإقامة دينه ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف ، وقمع أعداء الله . فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة .

وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا ، وهو : لهوه مع امرأته ، أو بقوسه وسهمه ، أو تأديبه فرسه . . وكل ما أعان على الحق .

وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفًا ، وهو : التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ويرده خاسئًا ، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه . . وهكذا جميع القوى التى ركبت فيه جعل لها مصرفًا . . . وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ، ومن موضع إلى موضع . . ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به .

* *

● **جنود القلب** :

* وجماع الطرق والأبواب التى يصان منها القلب وجنوده أربعة ، فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها ، وصرفها فى محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه ، وهى : الحرص ، والشهوة ، والغضب ، والحسد .

فهذه الأربعة هى : أصول مجامع طرق الشر والخير ، وكما هى طرق إلى العذاب السرمدى ، فهى طرق إلى النعيم الأبدى :

فآدم أبو البشر ﷺ أخرج من الجنة بالحرص ، ثم أدخل إليها بالحرص ، ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثانى .

وأبو الجن أخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها ، وقد قال النبى ﷺ : « لا حسد إلى فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار » (١) .

وأما الغضب فهو غول العقل ، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة ، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته وإذا كان حرصه إنما هو على ما ينفعه ، وحسده منافسة فى الخير ، وغضبه لله على أعدائه ، وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعونًا له على ما أمر به ، لم تضره هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع .

* *

● حال القلب مع الملك والشيطان :

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب ، فهذا يلم به مرة ، وهذا يلم به مرة ، فإذا ألم به الملك ، حدث من لمته الانفساح ، والانشراح ، والنور ، والرحمة ، والإخلاص ، والإنابة ، ومحبة الله ، وإيثاره على ما سواه ، وقصر الأمل ، والتجافى عن دار البلاء ، والامتحان ، والغرور ، فلو دامت له تلك الحالة لكان فى أهنأ عيش وألذه وأطيبه . ولكن تأتيه لمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم ، والغم ، والخوف ، والسخط على المقدور ، والشك فى الحق ، والحرص على الدنيا وعاجلها ، والغفلة عن الله - ما هو من أعظم عذاب القلب .

ثم للناس فى هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله : فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى : فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود ، والحسد يطلق ويراد منه تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام . ويطلق ويراد منه الغبطة وهى تمنى مثل الذى له ، وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا .

والضيق ، والحصر ، وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب ، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها . فهو دائمًا فى حرب بين اللمتين ، يدال له مرة ، ويدال عليه مرة أخرى ، والعاقبة للتقوى .

* ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى ، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ، ولا يحس ما ناله الشيطان به ، مع أنه فى غاية العذاب والضيق والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم ، فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه ، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ، فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان ، وهى لم تتجدد له ، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل . فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامنًا وتجدد له أضعافه .

* *

● علاج لمّة الشيطان ووسوسته :

والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك من جوانب تجذبه ، وهو نوعان : صفات ، وإرادات : فإذا كانت الجواذب صفات قوى سلطانه هناك ، واستفحل أمره ، ووجد موطئًا ومقرًا ، فتأتى الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس ، لا تدفع سلطان الشيطان ؛ لأن مركبه صفة لازمة ، فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال ، بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار ، وذلك يضعفه ، ويقوى لمة الملك ، فتأتى الأذكار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأسهل شىء .

وإذا أردت لذلك مثالاً مطابقًا : فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع ، وبينك وبينه لحم أو خبز ، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك . فأنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأبى إلا التحوم عليك ، والغارة على ما بين يديك . فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له . ولكن معلومه ومراده

عندك ، وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له ، وقد تأملك فرآك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب . وكذلك القلب الخالى عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر .

وأما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبه وموطنه ، فيقع الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولا يقوى على إخراج العدو منه ، ومصداق ذلك تجده فى الصلاة ، فتأمل فى الحال وانظر هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك ، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدى ربه مقبلاً بكليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه يراه ، قد اجتمع همه كله على الله ؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به فى محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان .

وههنا نكتة ينبغى التفطن لها ، وهى أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة . فالعبادات ، والأذكار والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن ، فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته ، وإن أزال منه شيئًا ما . فمدار الأمر على شيئين : الحمية ، واستعمال الأدوية . .

وهذا فصل جره الكلام فى قوله تعالى : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أشرنا إليه إشارة ، ولو استقصيناه لاستدعى عدة أسفار ، ولكن فيما ذكرناه تنبيه على ما تركناه [1] . وبالله التوفيق .

* * *

(١) ملاحظة : من ود مزيد بيان فى هذا الجانب فليرجع إلى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » ، فى هذا الفصل .